



مَجْلَدُ الْمَجْمَعِ الْعِلْمِيِّ

التاريخ والفلسفة في الفكر الخلدوني

جدلية الظاهر والباطن

الدكتور جميل موسى النجار

قسم التاريخ- كلية التربية

الجامعة المستنصرية- بغداد

المقدمة :

يبدو إن الوعي التاريخي المبكر للانسان ارتبط ارتباطاً وثيقاً بتطلعاته نحو إدراك حقيقة الكون والحياة ، وبحثه عن إجابات لتساؤلات عن بدايات الخلق وغاياته ، وخلق الكون وأسراره ، وطبيعة فعل الانسان وحركته ، أو سوى هذه وتلك من تساؤلات فلسفية . وفي الوقت الذي اضطلعت فيه الأديان والعقائد ، سواء أكانت طوطمية أم سماوية ، بالإجابة عن هذه الأسئلة أو عن بعض منها ، كانت حوادث الماضي (= التاريخ = History) ، في الوقت نفسه ، ملجأً آخر يلوذ به الانسان كيما يجيبه عن بعض الآخر من تساؤلاته (الفلسفية) .

وقد تطورت العلاقة بين التفكير الفلسفي والتاريخ عند الانسان حينما غادر التاريخ موقعه كسرد شفوي لحوادث الماضي أو مجرد تكوين لها - ربما لأول مرة على يد هيرودوت - نحو

آفاق رحيبة أخرى أصبح فيها موضوعا مستقلا قائما على أسس علمية تعتمد البحث والاستقصاء عن تلك الحوادث بغية الكشف عن وجهها الحقيقي ، وتتبدد القصص والأساطير التي كانت تشوب التاريخ كسرد قصصي (Storia) فحسب . ومن ثم أصبح التاريخ (= Historia) يحتاج ، ليصل الى الحقيقة التاريخية المتوخاة ، الى آليات فلسفية من قبيل التعليل والاستنباط والاستدلال ، وسواها من أدوات المنطق والفلسفة .

ومن هذا التطور انبثقت ، كما نرى ، جدلية التاريخ والفلسفة في عصر هيرودوت في القرن الخامس قبل الميلاد الدكتور ووجدت منذ ذلك الحين العلاقة الجدلية بين التاريخ والفلسفة كعلاقة بين ثنائية يختلف أحد طرفيها عن الآخر ، أو هو يبدو للوهلة الأولى كذلك ، ولكن كل طرف من طرفي هذه الثنائية كان ، وما زال ، يستدعي الآخر ويقترن به.

كما يبدو أن العلاقة الجدلية بين ثنائية التاريخ والفلسفة اتخذت أبعادا جديدة لدى فلاسفة اليونان ومؤرخيهم أيضا ، إذ لم يقتصر الفكر الفلسفي على كونه (أورغانون) التاريخ (= Historiography) أو آلة العلم التاريخي ، بل أصبح موضوعا متفاعلا مع التاريخ كحوادث وقعت في الماضي تعكس مضامين ورؤى فلسفية . فحوادث الماضي ، أو التاريخ ، كما كان يراه المؤرخ اليوناني بوليبيوس (٢٠٤-١٢٢ ق . م) ، هو " تعليم

الفلسفة بضرب الأمثال ^(١). الأمر الذي استفاده بوليبيوس ، ونفر آخر قبله من المؤرخين اليونان ، من التواريخ التي دونوها ، حينما أنعموا النظر في (أمثال) التاريخ ليخرجوا بعد ذلك بـ (فلسفة) تعلموها من تلك الأمثلة . فكان ثوكيوديدس (٤٧١-٤٠١ ق. م) ، مثلا ، يرى أن لكل شيء في مجرى التاريخ نموا واضمحلالا ^(٢)، مما يعني أن هناك حركة دورية في مسيرة التاريخ وحوادثه. كما كان بوليبيوس بعده يؤكد فكرة التعاقب الدوري - التي أصبحت فيما بعد نظرية في فلسفة التاريخ - وذلك بعد أن تحرى وقائع التاريخ الروماني وأمم العالم القديم الأخرى في مؤلف ضخ ، عدّ بمثابة تاريخ عام (Universal History) ، خرج منه برؤى فلسفية استشرافية توقعت نهاية حتمية للدولة الرومانية ، وهي آنذاك في أوج قوتها وازدهارها. ولم تقتصر تفاعلات موضوعي التاريخ والفلسفة مع بعضهما لدى اليونان على هذه الأمثلة بطبيعة الحال ، بيد أن هذا الجانب لا يعني بحثنا هذا بشكل مباشر كيما نسترسل فيه ، سوى ما ذكرناه عنه إجمالا كيما يشكل (مدخلا) معرفيا وتاريخيا لجدلية التاريخ والفلسفة .

(١) هرنشو ، ج. ، علم التاريخ ، ترجمه وعلق حواشيه وأضاف إليه فصلا في التاريخ

عند العرب عبد الحميد العبادي ، ط ١ ، دار الحداثة ، بيروت ١٩٨٨ ، ص ٣٢.

(٢) ويدجري ، آلبان ج . ، التاريخ وكيف يفسرونه .. من كونفوشيوس الى توينبي ،

ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة

١٩٧٢ ، ص ٥٨.

أساس وانطلاقة ..

وإذا كانت جدلية التاريخ والفلسفة انبثقت ، كما تبيننا ، في العصر القديم.. في القرن الخامس قبل الميلاد ، فانها شهدت في نهايات العصر الوسيط ، العصر الذي ازدهرت خلاله الحضارة العربية الاسلامية ، تطورا مهما عمق من الوشائج التي ربطت بين التاريخ والفلسفة ، ووضع الأساس للوصول بالعلاقة بينهما في العصر الحديث الى مستوى رفيع من التناغم عرف في القرن الثامن عشر بـ (فلسفة التاريخ). ولم يكن ذلك الأساس الذي بنيت عليه العلاقة بين التاريخ والفلسفة في العصر الوسيط سوى رؤى الفكر الخلدوني ونظرياته حول التاريخ .. مرة كعلم له قواعد وأصول منطقية وعقلية في البحث والدراسة ، وأخرى كمسرح لماضي النشاط البشري يخضع للتأمل الفلسفي والتنظير لطبيعة حركته واتجاهاتها.

التاريخ والفكر الإبداعي الخلدوني ..

يستند فكر العلامة العربي عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (تونس ٧٣٢ هـ ، ١٣٣٢م - القاهرة ٨٠٨ هـ ، ١٤٠٦ م) في جوانبه المتعددة التي تضمنتها (المقدمة) ، كما نرى ، الى (تاريخية) التكوين العقلي والمعرفي لابن خلدون. فقد شكلت التجربة السياسية التي خاضها في الشطر الأول من حياته ، وأصبحت فيما بعد (تاريخا) ذاتيا له ، وكذلك التجارب التي

خاضها الماضون.. أفرادا وحكاما ، وقادة ، ومجتمعات في مجال السياسة وتأسيس الدول والاقتصاد ونظم المجتمع وعوائده ، وسواها من مجالات ، مما دونه ابن خلدون في مؤلفه في التاريخ : (العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر) .. نقول : شكل كل هذا (التاريخ) ، منظورا إليه بمنظار (الحكمة) ، الأساس الذي يركز إليه مجمل الفكر الخلدوني الذي تميز بجوانب إبداعية عديدة تضمنتها مقدمة كتاب ابن خلدون في التاريخ (العبر) ، التي عرفت بـ (المقدمة) فحسب. إذ لم يقدر للفكر الإبداعي الخلدوني ، في مجالاته المتعددة ، أن ينبثق ، فيما نرى ، قبل أن يكون ابن خلدون سياسيا خاض غمار الحياة العامة وعبّ من تجاربها التي شكلت فيما بعد (تاريخه) الشخصي ، وقبل أن يصبح مؤرخا بعد أن ألف (العبر) ، لينهل من التجارب (التاريخية) للآخرين وينظر لها ، وللتاريخ الذي عاش حوادثه وشارك فيها ، تنظيرا يستند الى (باطن) التاريخ ، الذي يرتبط مع (الحكمة) بوشائج وثيقة ، وليس (ظاهر) التاريخ الذي لا يعدو أن يكون مجرد أخبار عن حوادث ولّى زمن وقوعها . فـ (التاريخ) ، الذي دونه ابن خلدون بعد أن اعتزل السياسة وقبل أن يكتب (المقدمة) ، هو ، كما ورد في النص الخلدوني : " في ظاهره لا يزيد على أخبار عن الأيام والدول والسوابق من القرون الأول ، تنمو فيها الأقوال ، وتضرب فيها الأمثال ، وتطرف بها الأندية إذا غصها الاحتفال ، وتؤدي لنا شأن

الخليقة كيف تقابلت بها الأحوال ، واتسع للدول فيها النطاق والمجال ، وعمرُوا الأرض حتى نادى بهم الارتحال ، وحن منهم الزوال. وفي باطنه نظر وتحقيق ، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق ، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق ، فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق ، وجدير بأن يعدّ في علومها وخليق^(٣).

وقد أصبحت (المقدمة) ، التي أراد لها ابن خلدون أن تكون مقدمة لكتابه في التاريخ ، وعاءاً للفكر الإبداعي الخلدوني ومنطلقه الذي يستند الى التاريخ ، ذلك أنه تناول فيها مواضيع في السياسة والاجتماع والفلسفة واللغة وعلوم الدين والأدب وسواها ، وأراد لها جميعاً ، وكما يقرر هو^(٤) ، أن تكون منظومة من المعايير القويمة كي يستعين بها المؤرخ على الوصول. أولاً الى تاريخ صحيح من خلال تحليل الحوادث وفهمها والتحقق من صدقها وصحتها. ولكي يفهم ثانياً مسار التاريخ البشري في سياقاته الواقعية وسننه العامة . وقد تميز تناول ابن خلدون في مقدمته للمواضيع والعلوم المتعددة بالجدة والطرافة ، مما أفرز رؤية خلدونية خاصة ، كان أهمها ما يخص (العمران البشري والاجتماع الانساني) الذي عدّه علماً مبتكراً على مستوى عصره والعصور

(٣) ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد ، مقدمة ابن خلدون ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت (د . ت) ، ص ٣-٤ . سنشير الى هذه الطبعة من المقدمة فيما بعد بـ (المقدمة) فحسب.

(٤) ينظر : نفسه ، ص ٦.

السابقة له^(٥)، وعده المحدثون التأسيس الأول لـ (علم الاجتماع) الذي كان تأسيسه الثاني على يد أوغست كونت^(٦).

التاريخ والحكمة .. الظاهر والباطن

تمخض فكر ابن خلدون في مقدمته عن ابداعات وابتكارات كان أهمها تأسيسه لعلم الاجتماع ، فان الفكر الخلدوني وضع الأساس للعلاقة الوثيقة التي ربطت ما بين التاريخ والفلسفة في العصر الحديث .

وكانت العلاقة التي أسس لها ابن خلدون ، لتكون علاقة تلازم بين التاريخ والفلسفة ، تقوم على الرؤية الخلدونية الخاصة لباطن التاريخ التي ترتقي بالتاريخ الى سمو الحكمة ، وتؤهله أن يعدّ في علومها التي حصرها ابن خلدون ، كما هي في عصره بالمنطق ، والعلم الطبيعي ، والعلم الإلهي ، والهندسة ، والحساب (الارثماطيقى) ، والموسيقى ، والهيئة ، " وتسمى هذه العلوم علوم الفلسفة والحكمة "^(٧) كما يقول ابن خلدون ، بما يعني أن الحكمة عنده مرادفة للفلسفة. وجدير بالذكر أنه عقد فصلا في مقدمته ،

(٥) العلامة عبد الرحمن بن محمد بن خلدون ، مقدمة ابن خلدون ، تحقيق الدكتور علي عبد الواحد وافي ، ج ١ ، ط ٣ ، دار نهضة مصر ، القاهرة (د . ت) ، ص ٢٣١-٢٣٢.

(٦) نفسه ، مقدمة المحقق ، ص ١٦٣.

(٧) المقدمة ، ص ٤٧٨.

عنوانه : في ابطال الفلسفة وفساد منتحلها^(٨) ، فكيف يجوز لنا أن نقول مع وجود هذا النص الصريح إن الحكمة مرادفة للفلسفة ، وكيف يريد ابن خلدون أن يكون التاريخ من علومها ؟ وجوابا عن ذلك نقول : إن ما أراد ابن خلدون ابطاله من الفلسفة هو جانبها اليوناني الميتافيزيقي وسواه من جوانب تتقاطع مع ثوابت العقيدة الاسلامية ولاسيما ما ورد من هذه الجوانب في فلسفة أرسطو^(٩). وفيما عدا ذلك يمكن القول إن ابن خلدون تبنى المنطق الأرسطي في مقدماته وبراهينه ، وكانت له نظرة فلسفية عقلية خاصة به نحو الكون والحياة والانسان انبثقت عنها فلسفته في الاجتماع والتاريخ . ويؤكد ما ذهبنا إليه من أنه لم يقصد من ابطال الفلسفة سوى جانبها الميتافيزيقي قوله عنها : " فليكن الناظر فيها متحرزا جهده من معاطبها وليكن نظر من ينظر فيها بعد الامتلاء من الشرعيات والاطلاع على التفسير والفقه ولا ينكب أحد عليها وهو خلو من علوم الملة فقل أن يسلم لذلك من معاطبها " ^(١٠) .

ومن ثم نجد أن التاريخ في الفكر الخلدوني له ارتباط بالفلسفة. وهو قبل أن يقترن بها لا يعدو أن يكون عند ابن خلدون مجرد أخبار تتقل لنا حوادث الماضي . إلا أن هذا (الظاهر) لا يعكس حقيقة التاريخ من وجهة نظر خلدونية ، بل الذي يعكس

(٨) نفسه ، ٥١٤ .

(٩) للتفاصيل : نفسه ، ص ٥١٤-٥١٩ .

(١٠) نفسه ، ص ٥١٩ .

حقيقته هو (باطن) التاريخ ، الذي يتمثل في التثبت من صحة حوادث التاريخ ، ومحاولة إدراك مسارات تلك الحوادث وكيفيات ايقاعاتها على مستوى الأفراد والمجتمعات والدول ، وذلك من خلال اخضاعها لـ (النظر والتحقيق والتعليل والعلم الذي يتقصى أسبابها وكيفياتها) ، الأمر الذي يضيف على التاريخ صفة حكمية أو فلسفية ، ويجعله من علوم الحكمة أو الفلسفة - على اعتبار أن الفلسفة كانت أم العلوم منذ عهد اليونان - ويؤسس لعلاقة جدلية بين التاريخ والفلسفة .

وهكذا فان جدلية التاريخ والفلسفة التي أسس لها ابن خلدون تقوم على علاقة بينهما في محورين أساسيين :

الأول : هو علاقة التاريخ بالفلسفة ممثلة بأدواتها العقلية والمنطقية ، التي يعالج بها التاريخ ليرتقي الى مرتبة (العلم) الذي له قواعد خاصة في دراسته .

الثاني : علاقة التاريخ بالفلسفة التي يمثلها التأمل في التاريخ العام ، والنظر العقلي الفلسفي في حوادثه ووقائعه في سبيل تفسير حركته ، وفهم طبيعة مسيرته وإيقاعاتها .

التاريخ .. علم بأدوات منطقية نقدية

عالج ابن خلدون في مقدمته طبيعة العمل التاريخي (الهستوريوغرافي) من خلال نقده للمؤرخين ، ووضعه للكثير من قواعد الدراسة التاريخية وأساليبها استنادا الى استدلالات عقلية

ومنطقية تعتمد مباحث المنطق في الاستنباط والاستدلال والقياس والاستقراء ، الأمر الذي حدا بالمؤرخ روبرت فلنت الى القول إنه كان مؤسسا لعلم التاريخ^(١١). وهي قواعد تقترب في مضامينها وأفكارها من (منهج البحث التاريخي) الذي تمكن المؤرخون الغربيون من وضعه أواخر القرن التاسع عشر ، وارتقى بالتاريخ عندهم الى مرتبة العلم. ويمكن القول إن ابن خلدون لم يؤسس بعمله هذا لعلم التاريخ ، ويضع الخطوط العامة لمنهج موضوعي في البحث التاريخي فحسب ، بل كان رائدا في الوقت نفسه لما دعاه الغربيون (فلسفة التاريخ النقدية) لما يجمع بينها وبين مواضيع منهج البحث التاريخي من وشائج وثيقة. ذلك أن منهج البحث التاريخي كان محورا لاهتمامات ما عرف منذ أواخر القرن التاسع عشر بفلسفة التاريخ النقدية ، ومجالا رئيسا لها ، تسعى الى تدقيقه والارتقاء به من خلال فحص وتطوير آلياته ، وذلك من قبيل التحري عن مدى صحة (المعرفة) في البحث التاريخي ودقتها ومطابقتها لأسس المنطق ونظرية المعرفة. ومهمة فلسفة التاريخ النقدية تجاه التاريخ ومنهج البحث التاريخي تشبه المهمة التي تضطلع بها (فلسفة العلم) تجاه العلوم الأخرى ، إذ هي تتمثل في " البحث في التركيب المنطقي للمعرفة التاريخية التي تسجل في علم

Flint, Robert, History of the Philosophy of history, w. ^(١١)
Blackwood and Sons Ltd, London ١٨٩٤, P. ١٥٧.

التاريخ^(١٢)، و" تمحيص المنهج الذي يصطنعه المؤرخون .. ومناقشة تحليل المصادر التاريخية "^(١٣). أما وجه شبه فلسفة التاريخ النقدية بفلسفة العلم ، فينحصر في " أن كليهما تمكننا من تمحيص مناهج البحث (في العلوم أو في التاريخ) تمحيصا نقديا ، وتوضيح المشاكل العامة التي لا يعرض لمعالجتها العلم أو التاريخ "^(١٤).

بدأ ابن خلدون بوضع الأسس التي تكون في مجملها منهجا (خلدونيا) في البحث التاريخي ، حينما وجه النقد الى أعمال المؤرخين السابقين له من خلال حديثه عن أخطاء بعضهم ، وتلفيق بعضهم الآخر الأخبار التاريخية. ولكنه شرع قبل ذلك بتقسيم هؤلاء المؤرخين الى ثلاث طبقات : الأولى طبقة الثقات أو الفحول ، والثانية طبقة المتطفلين الذين خلطوا ، كما يقول ، أخبار الثقات بأخرى باطلة لجهلهم أو لأغراض في أنفسهم. أما أصحاب الطبقة الثالثة من المؤرخين ، فقد انتقدهم ابن خلدون نقدا قاسيا

(١٢) بدوي ، عبد الرحمن ، موسوعة الفلسفة ، ج ٢ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٨٤ ، ص ١٦٠.

(١٣) الطويل ، توفيق ، أسس الفلسفة ، ط ١١ ، دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٩٠ ، ص ٩٢.

(١٤) نفسه ، ص ٩٢-٩٣.

لأنهم اعتمدوا ما جاء به مؤرخو الطبقة الثانية من دون أن يحصوه^(١٥).

ثم تحدث عما يجب أن يتحلى به المؤرخ من صفات كالقدرة وعدم المبالغة في نقل الأخبار ، والصدق والوعي ، وعدم الغفلة عن النقد والتدقيق والاكتفاء بنقل الأخبار فحسب ، وذلك ليصل الى الحقيقة ويبتعد عن الأخطاء والأوهام^(١٦). كذلك فإن المؤرخ ، كما يرى ، يجب أن يكون واسع الثقافة لأن التاريخ " محتاج الى مآخذ متعددة ومعارف متنوعة " ^(١٧)، ويلزمه أيضا " العلم بقواعد السياسة وطبائع الموجودات واختلاف الأمم والبقاع والأعصار في السير والأخلاق والعوائد والنحل والمذاهب وسائر الأحوال ، والإحاطة بالحاضر من ذلك ومماثلة ما بينه وبين الغائب من الوفاق أو بون ما بينهما من الخلاف " ^(١٨).

(١٥) المقدمة ، ص ٥٤. وللنفاصيل يراجع : النجار ، جميل موسى ، المنهج الخلدوني وموقعه من منهج البحث التاريخي الحديث ، البلقاء ، مجلة علمية محكمة تصدر عن عمادة البحث العلمي في جامعة عمان الأهلية ، المجلد ٨ علوم انسانية واجتماعية ، العدد ١ ، محرم ١٤٢٢ ، نيسان ٢٠٠١ ، ص ٨-٩.

(١٦) تنظر نصوص ابن خلدون بهذا الشأن في المقدمة ، ص ٩ ، ١١.

(١٧) نفسه ، ص ٩.

(١٨) نفسه ، ص ٢٨.

وتتأول أنماطا مختلفة من النقد الذي يجب أن يعتمد المؤرخ في تعامله مع مرويات التاريخ وأخباره. ويعتد النقد أهم مرحلة من مراحل منهج البحث التاريخي الحديث ، فالعمل في التاريخ " عمل نقدي من الطراز الأول " (١٩) بحسب تعبير المؤرخ الفرنسي شارل سنيوبوس. فكان أول ما دعا إليه ابن خلدون المؤرخين ، في هذا المجال ، هو ضرورة (تمحيص) الأخبار التاريخية ونقدها لأن عدم تمحيصها ونقدها قد يؤدي الى فهمها على وفق تصورات ذاتية مسبقة بعيدة عما يريده مدونها لها من معنى ، إذ " أن النفس إذا كانت على حال الاعتدال في قبول الخبر أعطته حقه من التمحيص والنظر حتى تتبين صدقه من كذبه ، وإذا خامرها تشيع لرأي أو نحلة قبلت ما يوافقها من الأخبار لأول وهلة وكان ذلك الميل والتشيع غطاء على بصيرتها عن الانتقاد والتمحيص " (٢٠).

وفي عملية مماثلة لما يعرف في منهج البحث التاريخي الحديث بـ (النقد الباطني السلبي) تتأول الأخطاء والأكاذيب التي قد تشوب الأصول التاريخية التي يعتمد عليها المؤرخ ، وبين طبيعتها ودوافعها لكي يبتعد هذا عنها ، ويحاول أن يتحراها في مصادره

(١٩) لانجلوا وسنيوبوس ، المدخل الى الدراسات التاريخية ، ترجمه عبد الرحمن بدوي مع نصوص أخرى لبول ماس وإيمانويل كنت تحت عنوان : النقد التاريخي ، دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٧٠ ، ص ٧١.

(٢٠) المقدمة ، ص ٣٥.

ليستخلص من هذه المصادر الأخبار الصحيحة ، ويستبعد الأخبار الزائفة^(٢١). ووضع عددا من المعايير التي قد يتوجب على المؤرخ أن يعرض عليها الأخبار والروايات لكي يستخلص منها الوقائع التاريخية الصحيحة ، ودعا هذه المعايير بـ (القواعد والأصول)^(٢٢). ويأتي معيار (الاجتماع البشري أو العمران) في مقدمتها ، فلا بد للحكم على الأخبار والروايات ، بغرض إثبات الحقائق التاريخية ، أن تتطابق هذه مع هذا المعيار. وعد هذه العملية ، التي أطلق عليها (المطابقة) أو (الإمكان والاستحالة) ، قانونا. فالأخبار والروايات " لابد من صحتها وصدقها من اعتبار المطابقة فلذلك وجب أن ينظر في إمكان وقوعه.. وإذا كان ذلك فالقانون في تمييز الحق من الباطل في الأخبار بالإمكان والاستحالة أن ننظر في الاجتماع البشري الذي هو العمران ونميز ما يلحقه من الأحوال لذاته وبمقتضى طبعه ، وما يكون عارضا لا يعتد به وما لا يمكن أن يعرض له ، وإذا فعلنا ذلك كان ذلك لنا قانونا في تمييز الحق من الباطل في الأخبار والصدق من الكذب بوجه برهاني لا مدخل للشك فيه... وكان ذلك لنا معيارا صحيحا يتحرى به المؤرخون طريق الصدق والصواب فيما ينقلونه"^(٢٣).

(٢١) تنظر : المقدمة ، ص ٣٥-٣٦.

(٢٢) نفسه ، ص ٢٨.

(٢٣) نفسه ، ص ٣٧-٣٨.

وهناك معايير أخرى ، عدا معيار العمران ، أهمها معيار فلسفي منطقي لا بد للمؤرخ أن يعتمد عليه ، مما يجعل التاريخ ، كبحث ودراسة ، ذات صلة وثيقة بالفلسفة. وقد دعا ابن خلدون هذا المعيار بـ (الحكمة وتحكيم النظر والبصيرة)^(٢٤). وعلى الرغم من أن تلك المعايير كانت متعددة ، إلا أن أهمها ، من وجهة نظر خلدونية ، هو معيار العمران. كما أن المعيار الفلسفي المنطقي كان لا يقل أهمية عنه من وجهة النظر نفسها كما يبدو ، ذلك أن ابن خلدون أوجب على المؤرخ أن يعرض ما ورد في الأصول التاريخية عليه ، ومن ثم على بقية المعايير التي أوجب على المؤرخ اعتمادها ، فلا يمر على الأخبار من دون عرضها على هذه المعايير ، واستبعاد ما يخالفها من أخبار وروايات. وقد انتقد ابن خلدون كبار المؤرخين العرب المسلمين ، كالطبري والمسعودي والواقدي ، على ذكرهم أخبارا تاريخية تتنافى مع المعايير التي ذكرها ولا سيما المعيار المنطقي^(٢٥). وطلب من المؤرخ أن لا يقبل الأخبار التي تتقاطع مع قوانين العقل والمنطق . وينصحه بهذا الصدد بقوله : " لا تتقن بما يلقى إليك من ذلك وتأمل الأخبار واعرضها على القوانين الصحيحة يقع لك تمحيصها بأحسن وجه "^(٢٦).

(٢٤) للاطلاع على هذه المعايير : نفسه ، ص ٩ ، ٢٨ .

(٢٥) للتفاصيل : نفسه ، ص ٤-٥ ، ١٠-٣٧ .

(٢٦) نفسه ، ص ١٣-١٤ .

ويحذر ابن خلدون المؤرخ من تطبيقه الاستدلال القياسي (القياس) على غير ما ترسمه مباحث المنطق ، فقد عُدَّ حديث المؤرخ عن الماضي ، والحكم عليه على وفق معايير الحاضر الذي يعيشه خطأ يجب الابتعاد عنه ، إذ على المؤرخ أن يتعرف على التغير والتبدل الذي يطرأ على كل عصر من العصور لكيلا يفهم الماضي فهما خاطئاً حينما يقيسه على عصره ، إذ أن "من الغلط الخفي في التاريخ الزهول عن تبدل الأحوال في الأمم والأجيال بتبدل الأعصار ومرور الأيام وهو داء دوي شديد الخفاء إذ لا يقع إلا بعد أحقاب متطاولة فلا يكاد ينقطن له إلا الآحاد من أهل الخليقة وذلك أن أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر إنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة وانتقال من حال الى حال ... فربما يسمع السامع كثيراً من أخبار الماضين ولا ينقطن لما وقع من تغير الأحوال وانقلابها فيجربها لأول وهلة على ما عرف وقيسها بما شهد وقد يكون الفرق بينهما كثيراً فيقع في مهواة من الغلط"^(٢٧).

كذلك فقد أراد ابن خلدون للمؤرخ أن لا يتوقف عند النقد ، وعرض الأخبار التاريخية على المعايير التي وضعها ، بل يتجاوز ذلك الى تحليل أحداث الماضي للتعرف على بواعثها وأسباب

(٢٧) نفسه ، ص ٢٨-٢٩ .

وقوعها^(٢٨). وهكذا نجد أنه قد وضع كثيرا من الأسس العامة التي بدأ المؤرخون الغربيون بوضعها منذ منتصف القرن التاسع عشر لمنهج البحث في التاريخ ، وحدد الخطوات التي يجب على المؤرخ أن يتبعها قبل أن يخوض فيها الغربيون بعدة قرون. وكان غرضه أن يكتب التاريخ بشكل موضوعي متفاعل مع وسائل العقل والمنطق ، وبعيد عن الأكاذيب والأخطاء والمبالغات التي تتأى به عن دائرة العلوم .

فلسفة التاريخ التأملية .. نظرية العصبية والدولة

يلاحظ المطلع على سيرة ابن خلدون أن الحياة العامة التي خاضها وما أكسبته من تجارب وخبرات واسعة ولاسيما في الجانبين السياسي والاجتماعي ، كانت ذات أثر بارز في تبلور آرائه وتصوراته لطبيعة حركة التاريخ ، فضلا عن معطيات نظره تأملي فلسفي في حوادث التاريخ ومسيرته. وتشير سيرته الى أنه كانت تحدوه رغبة شديدة في التعرف على طبيعة الواقع السياسي الذي كان يعيشه متمثلا في قيام الدول والامارات وسقوطها بسرعة ، واستجلاء أسباب النكبات والاختافات الشخصية

(٢٨) لتفاصيل أكثر : النجار ، سبق ذكره ، ص ٢٩. وللمزيد عن علاقة التعليل التاريخي بمباحث المنطق يراجع : النجار ، جميل موسى ، دراسات في فلسفة التاريخ النقدية ، ط ١ ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ٢٠٠٤ ، الفصل الأول المعنون بـ : التعليل التاريخي .. الأساس المنطقي والأبعاد المنهجية ، ص ١٣-٢٥.

التي كانت تلاحقه خلال عمله بالسياسة ، الذي كان يطمح من ورائه أن يتبوأ في تلك الدول مناصب رفيعة. ولكنه حينما أخفق في طموحه هذا تحول الى التاريخ مستبدلاً بطموحه السياسي طموحا علميا قاده نحو صياغة نظرية في فلسفة التاريخ امتزجت فيها عوامل خاصة ذات أبعاد فكرية فلسفية بأخرى عامة تتعلق بالتاريخ الاسلامي^(٢٩) ، ذلك أن ابن خلدون استعان بالتاريخ في الوصول الى تلك النظرية ، فضلا عن توظيف تجربته السياسية والاجتماعية الواسعة في صياغتها.

وطالما كانت ضالته هي إدراك الواقع السياسي الذي لم يمنحه منصبا ذا قيمة تذكر ، فقد كانت " الفكرة الأساسية التي سيطرت على ذهنه ، ووجهته في تفكيره وأبحاثه"^(٣٠) هي التعرف على " مبادئ الدول ومراتبها ... وأسباب تزاخمها أو تعاقبها "^(٣١). وجعلته ينتقد المؤرخين الذين " إذا تعرضوا لذكر الدولة نسقوا أخبارها نسقا ، محافظين على نقلها وهما أو صدقا ، لا يتعرضون لبدائيتها ، ولا يذكرون السبب الذي رفع من رايتهما ، وأظهر من

(٢٩) قارن مع : الجابري ، محمد عابد ، نحن والتراث ، ط٢ ، دار الطليعة ، بيروت ١٩٨٢ ، ص٤٢٩ ؛ الجابري ، محمد عابد ، فكر ابن خلدون .. العصبية والدولة ، ط٦ ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ١٩٩٤ ، ص٢٧٨.

(٣٠) الجابري ، العصبية والدولة ، ص١٦٥.

(٣١) المقدمة ، ص٥.

آيتها ، ولا علة الوقوف عند غايتها ...»^(٣٢). وطفق ابن خلدون يبحث عن أسباب قيام الدولة ، وماهية القوة التي تمكن من الوصول الى السلطة واعتلاء كراسي الحكم ، و" كيف دخل أهل الدولة من أبوابها " ^(٣٣) ، ووسائل ارتقائها ثم تراجعها وانهارها. فالدولة عنده محور حركة التاريخ ، والمعبر الجلي عن هذه الحركة ، وإن كانت (العصبية) هي الأساس الذي يعتمد فيه تفسيره لقيام الدول وسقوطها ، أو بتعبير آخر في تفسيره لحركة التاريخ ، ذلك أن (العصبية) و (الدولة) كانتا تمثلان عنده قطبي الحركة الدورية التي كان يرى أن التاريخ يسير على إيقاعها. ولهذا اطلق على (نظرية) ابن خلدون في فلسفة التاريخ التأملية : نظرية العصبية والدولة .

ولما كانت التجارب والخبرات المستحصلة من الواقع السياسي والاجتماعي المعاش تمثل إحدى القاعدتين اللتين ارتكز إليهما فكره ، فقد انطلق من المجتمع الذي عاش فيه وخبر طبيعته وتكوينه ، ليصل الى أجوبة عن التساؤلات التي كانت تلح عليه حول كيفية تأسيس الدولة وتسلم السلطة . ومعلوم أن مجتمع الشمال الأفريقي الذي عاش فيه كان مجتمعا قبليا يقوم في تشكيلاته وتنظيماته على (القبيلة) ، ومن ثم فلا بد أن يكون الحاكم ، أو

^(٣٢) المصدر والصفحة أنفسهما .

^(٣٣) المقدمة ، ص ٦.

الأسرة التي تؤسس الدولة وتتسلم السلطة تنتمي الى قبيلة معينة أو مجموعة متحالفة من القبائل^(٣٤) ، لكي تستند الى هذه القوة القبلية للوصول الى السلطة . وقد دعا ابن خلدون القوة التي يمتلكها الكيان القبلي ، ويصل عن طريقها الى الحكم بـ (العصبية) . وشدد على أهمية هذه العصبية للوصول الى الحكم وتأسيس الدولة ، وانتقد من أغفلها أو غفل عنها ، كالطوطوشي في كتابه (سراج الملوك) .^(٣٥)

وتسعى (العصبية) لدفع الضرر عن الجماعة والدفاع عنها ولاسيما حينما يحدق بالجماعة خطر خارجي . إلا أنها في الوقت نفسه لها نشاط آخر يتمثل في (المطالبة) ، ذلك أنها ، كما يرى ابن خلدون ، تجري نحو تحقيق غاية هي (الملك)^(٣٦) . فهي إذن لا تمثل غاية بحد ذاتها في نظرية ابن خلدون في فلسفة التاريخ كما يرى بعض الباحثين ، على الرغم من أنها تشكل حجر الزاوية في هذه النظرية^(٣٧) ، بل هي وسيلة فحسب لتحقيق غاية متمثلة بالملك وتأسيس الدولة^(٣٨) . أما عن كيفية سعيها لتحقيق هذه الغاية فهي ، كما يقول : " إن الأدمين بالطبيعة الانسانية يحتاجون في كل اجتماع الى وازع وحاكم يزع بعضهم عن بعض فلا بد أن يكون

(٣٤) الجابري ، العصبية والدولة ، ص ١٦٥ - ١٦٦ .

(٣٥) المقدمة ، ص ١٥٦ .

(٣٦) نفسه ، ص ١٣٩ .

(٣٧) الجابري ، العصبية والدولة ، ص ١٢٠ .

(٣٨) المقدمة ، ص ٣٧١ .

متغلباً عليهم بتلك العصبية ، وإلا لم تتم قدرته على ذلك وهذا التغلب هو الملك ^(٣٩). وبما أن هناك عصبيات متعددة لكل واحدة منها رئيس ، " فلا بد من عصبية تكون أقوى من جميعها تغلبها وتستتبعها وتلتحم جميع العصبيات فيها وتصير كأنها عصبية واحدة كبرى ^(٤٠). ثم تستمر هذه العصبية المتغلبة في طريقها نحو تحقيق الملك ، فتطلب " التغلب على أهل عصبية أخرى بعيدة عنها ^(٤١) ، فان تمكنت منها تلحقها بها ، لتزداد بذلك قوة وتسير نحو غاية أعلى وأبعد ، " وهكذا دائماً حتى تكافئ بقوتها قوة الدولة في هرمها ولم يكن لها ممانع من أولياء الدولة أهل العصبيات استولت عليها وانتزعت الأمر من يدها وصار الملك أجمع لها ^(٤٢).

إن بلوغ مرحلة الدولة يعني أن العصبية قد حققت الغاية التي تسعى إليها ، وهي غاية أساسية لها ، شكلت ، كما نوهنا بذلك من قبل ، محور النظرية الخلدونية . لذلك نجد أن ابن خلدون خصص ما يقرب من ثلث صفحات مقدمته للحديث عن الدولة . وكان تفسيره لحركة التاريخ يقوم على ثنائية العصبية والدولة.

(٣٩) نفسه ، ص ١٣٩.

(٤٠) نفسه ، ص ١٣٩.

(٤١) نفسه ، ص ١٣٩.

(٤٢) نفسه ، ص ١٤٠. وللتفاصيل يراجع : النجار ، جميل موسى ، علم التاريخ وتفسير التاريخ في الفكر الخلدوني ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، ج ٣ ، المجلد الرابع والخمسون ، بغداد ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م ، ص ٧٧.

فالعصبية بعد أن تنجح في تأسيس الدولة ، تمر الدولة ، كما يرى ابن خلدون ، بمراحل عمرية محددة تهرم في آخرها ، فتبرز عصبية جديدة قوية تقضي عليها وتؤسس دولة جديدة على انقاضها .. وهكذا دواليك. وعمر الدولة عمر محدود كعمر الانسان ، فـ "العمر الطبيعي للأشخاص على ما زعم الأطباء والمنجمون مائة وعشرون سنة" ^(٤٣)، كما يقول ابن خلدون ، وهو قد ينقص عن ذلك ولكنه لا يزيد عليه إلا في أحوال نادرة. كذلك فان أقصى عمر تبلغه الدولة هو مائة وعشرون سنة ، فـ "الدولة في الغالب لا تعدو أعمار ثلاثة أجيال والجيل هو عمر شخص واحد من العمر الوسط فيكون أربعين الذي هو انتهاء النمو والنشوء" ^(٤٤). فالدولة إذن عند ابن خلدون كالكائن الحي.. يولد وينمو ، ثم يهرم ويموت.

يشير ذلك كله الى أن ابن خلدون ، بعد أن انقطع عن عالم السياسة واعتزل في قلعة ابن سلامة لمدة أربع سنوات كتب خلالها تاريخه (العبر) قبل (مقدمة) هذا التاريخ ، كان يتأمل تاريخه الشخصي والتاريخ (العام) الذي دونه في كتابه العبر معا ، بفكر فلسفي تأملي ثاقب ، تمكن من خلاله من وضع نظرية العصبية والدولة ، التي نعدّها الآن نظرية فيما اصطلاحنا عليه فلسفة التاريخ

^(٤٣) المقدمة ، ص ١٧٠.

^(٤٤) أنفسهما.

التأملية أو النظرية^(٤٥) ، التي تبلور مفهومها أواخر القرن الثامن عشر على يد الفيلسوف الألماني ايمانويل كانت ، في مقالة كتبها سنة ١٧٨٤ بعنوان : (نظرة في التاريخ العام بالمعنى العالمي)^(٤٦). وهو مفهوم يعني النظر الفكري الفلسفي الشامل لمغزى التاريخ البشري المتضمن محاولة استنباط قوانين لمسيرة هذا التاريخ يستشرف المستقبل على ضوءها^(٤٧). ويعتمد هذا المفهوم ، كما هو واضح ، معطيات تاريخية وفلسفية ، ويقوم على علاقة جدلية بين التاريخ والفلسفة.

وقد وجد الجانب المتعلق بفلسفة التاريخ التأملية في الفكر الخلدوني في كتابات الغربيين وسواهم ما يشير الى ريادة ابن خلدون وسبقه في تناول هذا الموضوع ، وكونه صاحب نظرية فيه. فقد عدّ روبرت فلنت ابن خلدون مؤسساً لفلسفة التاريخ لا يمكن أن ينازعه أحد على هذا اللقب ممن عاشوا قبل الايطالي جيوفاني فيكو^(٤٨). وهو في نظر فلنت أيضاً لا يضارع في مجال البحث النظري في التاريخ - وهو ما يعني فلسفة التاريخ النظرية أو التأملية - من قبل أي من معاصريه الذين جاءوا من بعده حتى عصر فيكو ، وكان تفرد به بين هؤلاء ، كما يقول فلنت ، كتفرد

(٤٥) يراجع بهذا الشأن : الجابري ، العصبية والدولة ، سبق ذكره.

(٤٦) ينظر : لانجلوا وسنيوبوس ، سبق ذكره ، ص ١٥.

(٤٧) النجار ، دراسات في فلسفة التاريخ النقدية ، سبق ذكره ، ص ١٩٤.

(٤٨) Flint, Op, Cit., P.١٤٩.

دانتي في الشعر وروجر بيكون في العلم^(٤٩). ويرى جورج سارتون هذا الرأي نفسه ، إذ يقول عنه إنه كان من أوائل فلاسفة التاريخ الذين سبقوا فيكو . ويرى آرنولد توينبي أن ابن خلدون قد توصل في المقدمة الى صياغة فلسفة للتاريخ كانت عملا عظيما في مجاله^(٥٠). أما رينولد نيكلسون ، فقد عدّ ابن خلدون مكتشفا - في عمله التأملّي للتاريخ - قوانين التقدم والتدهور^(٥١)، وذلك مما يؤهل عمله ، بطبيعة الحال ، الدخول ضمن نطاق نظرية في فلسفة التاريخ التأملية.

وبعالدكتور. فان علاقة التاريخ بالفلسفة التي أسس لها - كما نعتقد وكما حاولنا أن نثبت في هذا البحث - ابن خلدون ، أثمرت ثمارها في الفكر التاريخي والفلسفي الغربي الحديث ، فأوجدت منذ القرن الثامن عشر علاقة جدلية تلازمية بين التاريخ و الفلاسفة ، كانت لها مكانتها في هذا الفكر ونتاجاته. وبرز في مجالها مفكرون وفلاسفة ومؤرخون عديدون كان رائدهم الايطالي جيوفاني فيكو(ت ١٧٤٤) ، ومعاصره الفيلسوف الاسكتلندي ديفيد هيوم (ت ١٧٧٦) ، الذي كان يرى أن التاريخ هو " الخليل الأعظم

Ibid., P. ٤١٥.

(٤٩)

Toynbee, A., A Study of History, Vol. ٣, Oxford University Press, London ١٩٤٨, P. ٣٣٢. (٥٠)

(٥١) صبحي ، أحمد محمد ، في فلسفة التاريخ ، منشورات جامعة قاريونس ، ط ٢ ، بنغازي ١٩٨٩ ، ص ١٣٣.

للحكمة^(٥٢). ومن ثم كان للتطور المطرد لجدلية التاريخ والفلسفة بعد ذلك ، وعلى مدى حوالي قرنين أثره في توطيد علائق التاريخ بالفلسفة في القرن العشرين .

فالمؤرخ والفيلسوف الايطالي الشهير بنديتو كروتشه كان يرى " أنَّ التاريخ هو الفلسفة وأن الفلسفة هي التاريخ "^(٥٣). وعلى هذا الأساس كان تصور المؤرخ الفرنسي هنري مارو عن تداخل وظيفة المؤرخ بوظيفة الفيلسوف ، الذي عبّر عنه بطلبه " ألا يدهش أحد إنَّ ، كمؤرخ محترف ، أتحدث كفيلسوف ، فهذا حقي وواجبي "^(٥٤)، لما يراه من وشائج قوية تربط التاريخ بالفلسفة ، دعتَه أن يطلب ممن لا يمتلك فكرا فلسفيا أن يبتعد عن التخصص في التاريخ ، إذ يقول : " إننا تحريفا للحكمة الافلاطونية ، فاننا سنسجل على واجهة الأكربول : (لا يدخل علينا إلا من كان فيلسوفا) ، إلا من تأمل في طبيعة التاريخ وفيما يجب أن يكون عليه المؤرخ "^(٥٥). فالتاريخ وثيق الصلة بالفلسفة

(٥٢) ديورانت ، ول ، قصة الحضارة ، ترجمة فؤاد اندراوس ومحمد علي أبو درة ، م ١٨ ، ج ٣٥ ، مكتبة الأسرة ، القاهرة ٢٠٠١ ، ص ٢٢٣.

(٥٣) رستم ، أسد ، مصطلح التاريخ ، ط ٢ ، المكتبة العصرية ، بيروت ١٩٥٥ ، ص ١٢٣.

(٥٤) مارو ، هـ. أ ، من المعرفة التاريخية ، ترجمة جمال بدران ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ١٩٧١ ، ص ٨.

(٥٥) نفسه ، ص ٩.

من وجهة نظر مارو ، فليس من تاريخ حقيقي ، على حد تعبيره " يكون مستقلا عن فلسفة الانسان ... التي يستعير منها تصوراته الأساسية... إن حقيقة التاريخ هي عمل لحقيقة الفلسفة مؤداة بواسطة المؤرخ "^(٥٦) وربما يلقي مزيدا من الضوء على آراء هنري مارو ما يراه مواطنه بول ريكور من تناظر بين طبيعة العمل الذي يؤديه كل من المؤرخ والفيلسوف ، فالمجهود التاريخي عند ريكور يشبه المجهود الفلسفي أكثر مما يشبه المجهود العلمي .^(٥٧)

^(٥٦) نفسه ، ص ١٩٤ .

^(٥٧) النجار ، دراسات في فلسفة التاريخ النقدية ، سبق ذكره ، ص ٦ .